الآثار الاجتماعية والنفسية للحرب البيولوجية الراهنة- كوفيد- 19

الدكتورة سلام عبد الكريم شمس الدين (استاذة جامعية وباحثة)

مقدمة

شهد التاريخ الإنساني في مختلف محطاته العديد من الحروب المدمرة والعنيفة، خاصة تلك التي تستخدم فيها أسلحة محظورة دولياً كالأسلحة البيولوجية "الجرثومية"، غير المرئية- لكنها فاتكة وقاتلة ومدمرة للكون، وتبقى آثارها عشرات السنين. يوثق التاريخ أن استخدام الأسلحة البيولوجية يعود إلى ما قبل الميلاد، وتجلى بعضاً منها في ما يلي: "إرسال الحيثيين كبشاً مصاباً بالتولاريميا إلى أعدائهم بالقرن الرابع عشر قبل الميلاد"[1]، "استخدام رماة الأسكيثين- من بدو أوروبا الشرقية- الأسهم المغموسة في جثث متحللة"[2]، "إلقاء الصليبيين خلال ما سمي بالحرب الصليبية في العهد الوسيط جثث الموتى المصابين بالطاعون في معسكرات المسلمين، استخدام المانيا في الحرب العالمية الأولى الكوليرا والجمرة الخبيثة والجدري والطاعون ومرض الرعام "داء الخيل" في حربها ضد ايطاليا وروسيا"[3]، تطوير اليابانيين الأسلحة البيولوجية خلال الحرب العالمية الثانية، واستخدمها في غزوهم الصينيين فيما بعد، "حيث قاموا بتسميم قرابة (1000) بئر مياه، وأسقطوا بالطائرات الحشرات الموبوءة بالطاعون على المدن الصينية"[4]، وغيرها من الحوادث والأساليب الأخرى والمتنوعة.

وفي العقد الأول من القرن العشرين شهدت البشرية أكثر من خمسة أوبئة خطيرة، كان منها في الحقبة الاخيرة: " فيروس السارس عام (2002)، انفلونزا الطيور عام (2003)، انفلونزا الخنازيرعام (2009)، وباء ايبولا عام (2013)"[5]، وأخيراً فيروس كورونا المستجد عام (2019).

---

[1] - http://www.almesbar.net< اتهامات كورونا دعوة للتركيز على الإرهاب البيولوجي- مركز المسبار للدراسات والبحوث، تاريخ الزيارة: 2020/5/10.

[2] - v.Berras&G.Greub,history of biological werfare and bioterrorism, clinical microbiology and infection, volume 20, june 2014> نقلا عن:.Http://www.sciencedirect.com/science/article/pii/s1198743x14641744 ، تاريخ الزيارة:2020/5/18.

[3] https://m.annabaa.org>arabic. ، الحروب البيولوجية أسلحة خفية وجرائم منسية, مقال: زيد المحبشي، 2020/4/11، تاريخ الزيارة: 2020/5/17.

[4] http://ar.mwikipidia.org اليابان وأسلحة الدمار الشامل، تاريخ الزيارة:2020/5/20.

[5] Arabicpost.net، أحظر الأوبئة التي ضربت العالم، 3/2020 /17، تاريخ الزيارة: 2020/5/11.

وترجّح العديد من خطابات المسؤولين والحكام، بأن فيروس كورونا، نشر بفعل فاعل، وبصرف النظرعن تعدد الفاعلين المتهمين، إلا أن الإنسانية هي المتضرّر الأول، عندما تتهاوى قيمة الحياة الانسانية للآخرين من منظور طرف معين، يأبى أن يحقق مصالحه السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية بأي ثمن وبأي وسيلة، حتى لو كانت نتيجتها فناء الإنسان وهلاك المجتمعات.

إن هذا الوباء الذي لم تختبره البشرية من قبل، والذي لم يعد محصوراً في مجتمعات طرفية محددة كما في الحروب البيولوجية السابقة، قد تحول إلى ظاهرة عالمية وضع العالم بأسره أمام استحالة الحرية في التنقل واستمرار الحركة، ودفع غالبية الدول إلى اتخاذ إجراءات وقرارات غير مسبوقة لإغلاق المدن والمعابر ودعوة الجيوش للإسناد، والذي ترافق معه العديد من المحاولات لتحليل هذه الظاهرة وفهمها من قبل فلاسفة ومختصين نفسانيين وعلماء اجتماع، وعلماء صحة وغيرهم من المهتمين، لإدراك مخاطرها وتداعياتها الاجتماعية والنفسية والصحية والاقتصادية والتربوية..الخ، ناهيك عن الجهود الطبية والمخبرية التي عجزت بدورها عن تأمين علاج أو لقاح لهذا الفيروس الذي يفوق ذكاؤه ذكاء العقل البشري والذكاء الاصطناعي. ما يدفعنا للنظر إلى تلك الجائحة نظرة كلية كونها تؤسس لمنعطفات تغييرية في حياتنا، وعلى أكثر من صعيد، والعمل على رصد تداعياتها وآثارها ببعديها التركيبي "السوسيولوجي والسيكولوجي"، وذلك باستخدام الأسلوب الوصفي في دراسة الحقائق والمفاهيم المتعلقة بها، والرجوع إلى عدد من المراجع العلمية النظرية والمقالات والدراسات والتصريحات والمواقف والمعطيات المرتبطة بهذا الموضوع، لتحليلها والإستفادة منها بهدف معرفة الآثار السوسيولوجية والسيكولوجية التي تفرزها تلك الجائحة على الأفراد والجماعات في مسار حياتها اليومية، وما تحدثه من تغيرات في البنية الاجتماعية بأبعادها المختلفة.

وبناء على ما تقدم نطرح التساؤلات الآتية:

1- **كيف تفاعلت المجتمعات مع منعطفات هذه الجائحة؟**
2- **ما هي الآثار الاجتماعية والنفسية التي خلفتها أزمة كورونا؟**
3- **ما هي الآليات التي يمكن اتباعها لمكافحة تلك الآثار والتخفيف من حدتها؟**

أهمية الدراسة: تسهم هذه الدراسة في اطلاع الفاعلين والمهتمين في مجال التوعية المجتمعية على أهم الآثار والتغيرات التي تحصل في البنية الاجتماعية والبنية النفسية جراء الحرب البيولوجية وتفسير مفاعيلها على الشعوب.

دوافع الدراسة: نتيجة حالة الطوارئ الراهنة التي تعيشها المجتمعات في ظل جائحة كورونا، ونتيجة ما خلفته من تداعيات اجتماعية ونفسية واقتصادية وغيرها، تأتي هذه الدراسة كحلقة مكملة لسلسلة من الدراسات المختلفة السابقة حول الموضوع نفسه، دعماً للحاجة في معرفة أثر الحرب البيولوجية على الأوضاع الاجتماعية والحالة النفسية للشعوب المتعرضة لها ومنها لبنان.

مصطلحات الدراسة:

1- الحرب البيولوجية: وتعرف أيضا بالحرب الجرثومية أو الميكروبية. "هي الاستخدام المتعمد للجراثيم أو الفيروسات أوغيرها من الكائنات الحية الدقيقة وسمومها التي تؤدي إلى نشر الأوبئة ومسبباتها"[6].

2- الأثر: هو" نتيجة الفعل الذي ظهر جراء مؤثر ما، الأثر هو نتيجة الإتصال، وهو يقع على المرسل والمتلقي على السواء. وقد يكون الأثر نفسي واجتماعي "[7]. ونقصد بالأثر هنا هو ما خلفه فيروس كورونا من آثار اجتماعية ونفسية على المواطنين والدول التي تعرضت له.

أقسام الدراسة: في ضوء تساؤلات الدراسة وأهدافها، تم تقسيم الدراسة الى مقدمة وثلاثة مباحث وخلاصة عامة.

يتناول المبحث الأول، أنماط التفاعلات البشرية مع فيروس كورونا، ويتمحورالمبحث الثاني حول الآثار السوسيولوجية والسيكولوجية لكوفيد 19، أما المبحث الثالث فيقدم أهم الآليات المساعدة لتخطي تلك الأزمة، والتحديات المقترحة ما بعد جائحة كورونا، وأخيرا الخلاصة والاستنتاجات التي ستتبلور في ضوء تساؤلات الدراسة وأهدافها.

المبحث الأول: أنماط التفاعلات البشرية مع الفيروس

وضع فيروس كورونا الإنسانية جمعاء أمام مرحلة حجر وعزل. فالحجر قد يكون بمعناه المحلي، وقد يكون العزل في مستوى علائقي دولي عالمي، فالإنسانية التي في زمن ما كانت تعيش ضرباً من الذوبان والانصهار في الآخر، أضحت اليوم تعيش ضرباً من الخصوصية السجينة والمعزولة، خصوصية مكروهة فيها من الغلق والانغلاق، والتقوقع والانكماش ورفض كل تجمّع أواجتماع على المستوى المحلي والاقليمي

[6] https://ar.m.wikipidia.org، حرب بيولوجية- ويكيبيديا، تاريخ الزيارة:2020/5/12.
[7] حسن عمار مكاويوليلي السيد, الإتصال ونظرياته المعاصرة، دون طبعة, الدار المصرية اللبنانية, مصر, 2001, ص52.

والعالمي، ما يشكل قلقاً عالمياً متعدد الأبعاد والأشكال لم ينفذ منها لا القوي ولا الضعيف، لا الحاكم ولا المحكوم، لا الكبير ولا الصغير، لا البورجوازي ولا البروليتاري، لنعيش كارثة كونية انسانية جامعة.

أدى هذا الانفجار البيولوجي إلى خلق ثلاثة أنماط من البشر، الأول: النمط العدمي الذي سرعان ما يعتقد أن النهاية عاجلة ولم يلحق أن يحقق كينونته ويستغل مراحل حياته، سيما بعد فشل النموذج العلمي في تمثل الواقع وحل مشاكله. والثاني: هو نمط الإنسان الذي يبالغ بتقدير أخطار الإصابة، يلهث وراء الماديات لتحقيق شهواته ورغباته قبل أن تداهمه المنيّة، مدفوعاً باللهث المتزايد على المنتوجات الاستهلاكية معتقداً أن الهدف من الحياة يكمن في العيش فقط، مع بروز قلق طاغ متخذاً اجراءات الوقاية بصورة اضطراب وهلع مرضي متجاهلاً الجانب القيمي من الإنسانية. وأخيراً النمط الثالث: وهو النوع الغائب الحاضر الذي لا يمكن أن نصنفه إلا بالغافل والمستهتر واللامبالي بالاجراءات الوقائية، وكأن خطر العدوى لا يطاوله، بل يطاول الآخرين متنكراً لموته الذاتي، وكأنه ليس متبصرا بالخطر الفعلي أو ليس منتمياً إلى هذا الوجود.

المبحث الثاني: الآثار السوسيولوجية والسيكولوجية لجائحة كورونا

أولا: الآثار السوسيولوجية: يمكن النظر إليها من زوايا متعددة نذكر منها:

1- على المستوى الديموغرافي:

أحدثت جائحة كورونا اختلالاً في التركيبة السكانية في العديد من الدول، كالصين وإيطاليا واسبانيا وأميركا، وغيرها من الدول، نتيجة للأعداد الهائلة التي حصدها من الوفيات، الأمر الذي أدى إلى تغيّر في البنية الديموغرافية والذي يعكس بدوره تغيرات جذرية في البنية الاجتماعية والاقتصادية لتلك الدول.

2- على المستوى الاجتماعي:

أ- التكافل الإجتماعي وتصاعد الشعور الجمعي: واجهت البشرية نتيجة الحظر القسري شحاً في الموارد الاقتصادية، حيث بادرت الحكومات من جهة ومؤسسات المجتمع المدني والجمعيات الأهلية والمؤسسات الخاصة والهيئات والجهات الفاعلة في المجتمعات على مختلف أنواعها وتوجهاتها الدينية والسياسية والحزبية من جهة أخرى، بحملات دعم في كثير من الدول، في إطار المشاركة الاجتماعية وبهدف تحقيق وتعزيز مبدأ التكافل الاجتماعي لدعم قضية مشتركة، وبناء عالم يسوده الأمل والتفاؤل. وفي لبنان ظهرت حالة من الإيثار والشعور الجمعي بين كل تلك الجهات وبين أفراد المجتمع المدني، وكان للمتطوعين من الشباب الجامعي دورٌ كبيرٌ في دعم القطاع الصحي احساساً منهم بالمسؤولية، حيث قدموا خدماتهم الطبية والتقنية لمواجه هذه الجائحة، في وقفة تحدٍ لكل عوامل النقص والقهر والألم مجسدين بذلك أسمى معاني الانسانية وقيم التماسك والانتماء والمواطنة الحقة.

ب- التباعد الإجتماعي: يسجل علماء الاجتماع: إن ايقاع الحياة اليومية، رتابتها وروتينها المعتادين يرتبكان وقت الأزمات. فالحياة اليومية للأفراد والمجتمع تتضمن أنماطاً معروفة من التفاعلات والعلاقات والتوقعات، ويشكل حدث كورونا هنا خروجاً حاداً وصادماً عن هذا الروتين بفعل فرض الحجر الصحي والتباعد الاجتماعي، الذي معه عزلت جميع الأنشطة التي اعتاد الناس على ممارستها ومزاولتها منذ الأزل. حيث تحولت حياة الناس إلى سجن مخيف، وتقلصت معها مساحة التفاعل الاجتماعي وجهاً لوجه، وانعكس ذلك على اتجاهاتهم القيمية، والتحول نحو نمط التواصل والاتصال الرقمي عبر شبكات التواصل الاجتماعي. ومن المعروف سوسيولوجيا أن الانسان مفطور على الألفة والاجتماع بالناس، وأن المجتمع مرتبط بالتفاعلات الاجتماعية بين الأفراد التي هي أساس الحياة وشرط من شروط الوجود الانساني. مما يعني ضمناً أننا أمام مشهد غريب وتحولات غير مسبوقة في جميع الدول الموبوءة دون استثناء.

وقد شهدت على وجه الخصوص الدول الإسلامية التي اقترن فيها انتشار الجائحة مع حلول شهر رمضان المبارك تغيرات جذرية (بسبب التباعد الاجتماعي القسري)، في العادات والتقاليد المرتبطة بهذا الشهر (كالالتقاء بالأرحام والأصدقاء حول الموائد الرمضانية وإقامة الصلوات الجماعية في المساجد)، ليضعهم في مواجهة التقاليد الاجتماعية والثوابت الدينية الراسخة، وهذا بالطبع يتماشى مع توجهات العولمة التي تسعى إلى تغيير نمط الروابط العائلية وضرب القيم الدينية ودفعها إلى التفكك والإنهيار.

3- **<u>على المستوى الاقتصادي والسياسي:</u>**

أ- الاحتكار والتلاعب بالأسعار: في الوقت الذي تخوض فيه البلاد حربها ضد جائحة كورونا واضعة كل الامكانات المادية والبشرية للحد من انتشار الفيروس المستجد والخروج بأقل الأضرار، برزت ظاهرة الاحتكار وعمليات المضاربة في المواد الغذائية والترفيع في الأسعار، فتضاعفت المخالفات والتجاوزات الاستبداية بشكل كبير من قبلهم مستغلين الظروف التي تمر بها البلاد للاستثمار ومضاعفة ثرواتهم، ما يعكس درجة الفقر لدى الفئات المحدودة الدخل ليتجسد النقص في الغذاء عند هذه الفئات في كابوس المجاعة لهم ولعائلاتهم.

ب- فساد النخب الحاكمة وفقدان الثقة بالأنظمة السياسية: حين تقترن الأزمة بارتفاع سعر الدولار، وتقليص دور المصارف وارتفاع الأصوات من قبل المودعين فيها ودفعهم إلى عملية إذلال معنوي ومادي مبرمج بهدر حقوقهم والاستحواذ على أموالهم وودائعهم، والمقرونة بالمحسوبية ودوائر النفوذ،

يصبح للمشكل أبعادٌ سياسية لأنه يطرح مشكل الفساد وتحديدا فساد النخب الحاكمة في عيون الفقراء والمهمشين، خاصة وأن واحداً من أهم الشعارات المطروحة في الثورات في بعض البلدان العربية اليوم، ومنها لبنان، هو مقاومة منظومة الفساد بكافة مكوناتها، الأمر الذي يعكس هشاشة التوازنات التحتية، نتيجة التداعيات المختلفة التي ظهرت في بعض حركات التغيير السياسي، وما نجم عنها من الفتور وانعدام الثقة في الأنظمة والسلطات الحاكمة، ليشمل مختلف الأنظمة السياسية حول العالم، والتي تجسدت بصورة واضحة في الدول المتقدمة كبريطانيا وإيطاليا اللتاي تعرضتا لانتقادات جمة في تقصيرحكوماتهما تجاه المواطنين، وعدم اتخاذ اجراءات مبكرة للحدّ من انتشار الفيروس. كذلك في الولايات المتحدة حيث تعرض الرئيس ترامب للهجوم من قبل شعبه بعد أن استخف بفيروس كورونا في بدايته قبل ان يظهر الجدية فيما بعد. وهذه الوقائع ستحفر في الذاكرة الجماعية للشعوب. حيث أن ما وصلنا إليه من شح الموارد والعوزالمالي وانتشار الفوضى والفساد، يقابله دوماً الشعور بالألم الاجتماعي العميق.

ج- البطالة والأمن المجتمعي: أدى الحظر الصحي واغلاق البلاد من قبل السلطات إلى فقدان العديد من الناس لوظائفهم ومهنتهم وخسارة مؤسساتهم دون حماية قانونية لهم. فازدادت بذلك نسبة البطالة وتهدد أمنهم الاقتصادي، الأمر الذي أثقل كواهل الأسر وأثر على حياتهم وطرق معيشتهم، وترك في نفوسهم احساساً عميقاً بالقهر والعجز والانتظار المشحون بالانفعالات السلبية والذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى تفاقم المشكلات الاجتماعية والى زيادة الظواهر المرضية كالتفكك الاسري والعنف بشتى اشكاله، الانحراف والجريمة بمختلف انواعها وما تعكسه من أعمال الفوضى والشغب والإخلال بالأمن المجتمعي.

وقد شهد لبنان ارتفاعاً كبيراً في نسبة البطالة مع انتشار فيروس كورونا والتي قد تصل نسبتها في الأشهر المقبلة بحسب "الدولية للمعلومات" إلى نحو "مليون عاطل عن العمل أي بنسبة 65%"[8]، والذي سيشكل بدوره خطراً على الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي وانعدام الأمن النفسي للمواطنين. وعلى الرغم من المبادرات الجادة التي قامت بها الحكومات لدرء تلك المخاطر والتذليل من وطأتها على المواطنين في مجالات شتى، والتعويضات المالية التي منحتها للناس المتعثرين مالياً، إلا أن كل ذلك لم يطفئ غضب الشعب ولم يعوض خسارتهم، ولم يثنيهم عن المطالبة بحقوقهم بشتى الطرق، لا بل أنهم يعتبرون ذلك انتقاصا من كرامتهم التي يجب أن يتمتعوا بها في ظل دولته.

4- **على المستوى الثقافي والقيمي:**

[8] www.Lebanon24.com، البطالة في لبنان، صدر بتاريخ 2020/5/26، تاريخ الزيارة: 2020/5/30.

أ- ارتباك الشعور الديني والقيمي: تؤكد الخبرات التاريخية والدراسات الاجتماعية والنفسية، أنه وفقا للأزمات الكبرى والأوبئة الخطيرة يتعمق الشعور الديني لدى الأفراد، وينبعث هذا الشعور حتى عند الغافلين أو المستهترين بالدين نتيجة الحاجة إلى التوحد بالآخر. ويؤكد ذلك الفيلسوف" أوغست كونت" يرى "أن الدين عبارة عن نظام من المعتقدات والممارسات المتعلقة بالمقدسات، والتي توحد جميع من يعتنقها. أي أن الدين شعور باطني للمجتمع مهمته احلال التماسك والانسجام بين أفراده"[9]. هو "قاعدة ورابطة تشد أزر المجتمع، يوحي بقوة الاعتقاد ووجود مجموعة من القيم المتعالية اجتماعياً، ووفقها يتأسس نظام الموجودات. ومن هنا تكمن الطقوس ودورها في بث اليقظة الدائمة في هذا الوعي الجماعي الأصيل"[10]. ويرى "يونغ" "أن ازدياد ارتباط الفرد بالدين يزيد من صحته النفسية"[11]. وعليه فإن الناس في ظل أزمة كورونا، يشعرون بضرورة الاحتماء بالقوة الإلهية ومناجاة الله والتضرع له لحفظهم من الشرور والمرض، ما يزيد تأثرهم وتمسكهم بمنظومة القيم التي ترشدهم نحو سلوكيات بعينها، كالتردد على دور العبادة والالتزام بممارسة الطقوس والشعائر الدينية، ونشر قيم التضامن والتآزر والتوجه نحو الأعمال الخيرية باعتبارها ملاذا طبيعيا وعامل طمأنة نفسية، تعمل على التخفيف من معاناتهم وقد تكون حلا للخلاص الجماعي كل بحسب معتقداته وايمانه. كما يمكننا تفسير هذا الشعور أيضا كنوع من العودة إلى الذات والتفكير بالدين كأداة عصيان وتمرد على الخوف الذي قد ينمو ويتحول إلى حالة من الهلع والهوس كلما ابتعد الفرد عن الأمل في تجنب المخاطر..

وعلى الجانب الآخر، أنه مع طول مدة الأزمة وتفشي الجائحة وارتفاع مستوى الخطورة وزيادة الضغط النفسي، قد يرتبك الفرد، ويتشكك في معتقداته وقيمه. فقد لاحظنا نزعة متزايدة في فترة انتشار الفيروس، من أنه عقاب إلهي ضد الصينيين لمعاملتهم واستهزائهم وعدم احترامهم للمسلمين؟ ففي ظل تلك التناقضات يتأرجح الفرد بين الرغبة بالاحتماء بالقيم والدين والمعتقدات الشعبية من جهة، وبين شكوكه في قدرتها على حمايته ونجاته من جهة أخرى.

ب- إعادة انتاج " التراث الشعبي" (الموروث الشعبي):_من أهم المسارات التي يلجأ إليها الأفراد عادة في ظل الأزمات، البحث في معطيات التراث الشعبي، سواء لمحاولة التعامل مع المرض ذاته، فيما يعرف بالطب التقليدي أو الشعبي، أومعطيات التراث التي تبعث على الطمأنينة، أو تلك الحكم والمقولات التي يبدأ بتداولها للتكيف مع الأزمة. وقد تجلى ذلك في معظم الدول مثل: اعتبار الثوم والبصل وبعض

---

[9] جان بول ويلام، الأديان في علم الإجتماع، ترجمة بسمة علي بدران، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2001، ص 26.

[10] سابينو أكوافيفا وأنتروباتشي، علم الاجتماع الديني، الإشكالات والسياقات، أبو ظبي، ط1، 2001، ص 38.

[11] محمد قطب، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، بيروت، ط10، 1988، ص 74.

الأعشاب شافية من الفيروس. وكانت الصين قد صرحت "أن 87% من مرضى كورونا في بكين تلقوا علاجاً تقليدياً"[12]. وبغض النظر عن فاعلية العلاج التقليدي من عدمه في مواجهة الوباء، إلا أن ذلك يؤثرعلى حالة الفرد النفسية، وتمنحه نوعاً من التوازن الداخلي المرتبط باعتقاده في فاعلية الوصفة الشعبية.

ج- تصاعد نظرية المؤامرة وتبني الشائعات: اشار فرانك سنودين في كتابه "الاوبئة والمجتمع"، "إن الأمراض الوبائية ليست أحداثاً عشوائية تصيب المجتمعات بشكل نزوي ودون سابق انذار، بل على العكس من ذلك كل مجتمع يتميز بخصوصياته وبنقاط ضعفه الخاصة. ولدراستها يجب فهم بنية المجتمع ومستوى معيشته وأولوياته السياسية. كما أن الأوبئة مثل تفشي فيروس كورونا هي مرآة للبشرية، تعكس العلاقات الأخلاقية التي تربط الناس ببعضهم البعض. وأنه في زمن الأوبئة تكون الأرضية خصبة لظهور نظرية المؤامرة من أن الوباء من صنع الانسان والذي لا يظهر سوى الجانب المظلم للبشرية"[13].

وهذا ما حدث بالفعل، فمع ظهور وباء كورونا وانتشاره عالميا، حدث موجة من الشائعات التي يطلقها البعض وينجرف خلفها استعداد الملايين من الناس لتلقيها محاولين تفسير ما يحدث حولها، وتصاعدت نظرية المؤامرة، ليس فقط بين الشعوب وبعضها، بل أيضاً بين الدول. ولعل الاتهامات المتبادلة بين الصين والولايات المتحدة الأميركية خير دليل على ذلك.

د- مظاهر العنصرية والوصمة الإجتماعية والإثنية: ترتبط بعض الأوبئة ببعض الإثنيات التي تظهر فيها لأول مرة، ثم تنتشر بعد ذلك. وأحيانا تتعرض هذه الإثنيات إلى استبعاد أو تمييز أو وصم. ويكفي فقط أن نلقي نظرة على الجانب المظلم من النفس البشرية الذي ظهر في الإعلام وعلى وسائط التواصل الاجتماعي، عن علاقة كورونا بالعنصرية، والتي تجلت مظاهرها بالعداء والخوف من كل ذوي الملامح الآسيوية وليس الصينيين فقط. فعلى سبيل المثال: تم وصم الصين سياسياً من خلال وصف الوباء بأنه فيروس صيني، وكان هناك تصاعد في الوصم تجاه أشخاص من أصل صيني بشكل عام. وهذا ما ظهر في لبنان عندما تعرض الشاب الجامعي الصيني إلى التنمر. وكذلك "البصق"على سياح صينيين في فينيسيا الإيطالية. ناهيك عن الاتهامات التي وجهت للإيرانيين بعد توافدهم إلى لبنان

[12] https://www.alroeya.com،العرقسوس والإيفيدرا، الصين تلجأ للطب الشعبي لمواجهة كورونا، سكاي نيوز، نشر بتاريخ:2020/2/28. تاريخ الزيارة: 2020/5/22.

[13] www.diwanalarab.com، كيف غيرت الأوبئة تاريخ البشرية، مقال: عبده حقي، في حوار مع "فرانك سنودن"، نشر بتاريخ2020/4/18. تاريخ الزيارة: 2020/5/19.

باعتبارهم مصدر تفشي الوباء فيه. فالوصمة الاجتماعية التي خلفها فيروس كورونا، طالت هوية الفرد وانتمائه الوطني وجعلته يتلقى الكثير من التجريحات والاتهامات واللوم والانتهاكات الأخلاقية.

5- على مستوى الإعلام ووسائل الاتصال الحديثة

أ- وسائل الإعلام بين الطمأنة والتهويل: تلعب وسائل الإعلام دوراً إيجابياً في توعية المواطنين لإجراءات السلامة العامة والحجر المنزلي من جهة، وتعمل بعضها على إثارة الفزع والهلع في نفوس المواطنين وشحن الشاشات بالتهويل بأخبار كورونا بعيداً عن الموضوعية والمصداقية في نقل الخبرمن جهة أخرى. لا بل قد نجد بعضاً منها يتم استغلالها من قبل تيارات متطرفة معينة، في محاولة يائسة تعمل على شحن النفوس وإثارة مشاعر الناس عبر تحميل الحكومات بالتقصير في مواجهة جائحة كورونا.

وبالمقابل شكلت هذه الأزمة وعياً لدى بعض الناس بعدم تصديق كل ما ينشر ويقال في وسائل الاعلام ووسائط التواصل الاجتماعي، مطالبين بالمصدر للتحقق منها، وهذا بالطبع يحميهم من الوقوع في دائرة الإرباك والقلق.

ب- شبكة الأنترنت بين المنفعة والتحكم السلبي**:** استفادت المجتمعات من تجاربها أثناء الأزمة الراهنة، وكان للأنترنت وما يتصل به من وسائط تواصل اجتماعي دور مهم لم نشهد له مثيلاً من قبل. حيث تعددت ونشطت المنصات الالكترونية بفعل التباعد القسري، والتي اهتم بعضها بالارشاد والتوجية والوقاية من الفيروس، وبعضها الآخر اهتم ببث أنشطة فنية ورياضية كوسيلة للتفريغ النفسي والتأهيل الاجتماعي. ناهيك عن اعتماد العديد من المؤسسات الحكومية والأهلية، البوابات الالكترونية المتنوعة والتطبيقات الشهيرة مثل الواتساب والتلغرام والسكايب، microsoft team,google class room,Zoom وغيرها، للعمل عن بعد، وإكمال المسيرة العملية وتحقيق الأهداف الآنية والمستقبلية التي تتوخاها بالرغم من بعض العوائق التي واجهتها، من ضعف في البنية التحتية للتكنولوجيا والأنترنت، مثل قلة الموارد المتاحة (برامج، انترنت، أجهزة، كهرباء، آلات طباعة الخ..). لقد فرضت التكنولوجيا وشبكة الأنترنت نفسها في ظل أزمة كورونا وأعلنت هيمنتها في كثير من القطاعات الإنتاجية وسيطرت على أشكال الحياة الجديدة لا بل الحياة المستقبلية أيضاً، كما فرضت صوبها الانتماء إليها، دون ضرورة الارتباط بحيز فيزيقي معين.

وبالمقابل نجد بعض الإنعكاسات السلبية التي خلفتها أزمة كورونا في علاقتها مع التكنولوجيا وشبكة الأنترنت على حياة الناس. استطاعت أن تحكم قبضتها على أنماط حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والأسرية، بعد ما أصبحت ملاذهم الوحيد للتنفيس عن روتين الحجر المنزلي القسري حتى أجل غير معلوم، الأمرالذي قد ينذر بعواقب وخيمة على الفرد والمجتمع على حد سواء، كارتفاع نسب الإدمان

على الأنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي، واختلال العلاقات داخل الأسرة، وانعدام التوافق النفسي والاجتماعي والدراسي والمهني للأفراد.

ثانياً: الآثارالسيكولوجية

مع تفشي الأوبئة وظروف الكوارث والحروب، تتعرض الشعوب لأبشع أنواع الضغوط الصادمة والضاغطة، وتتغير سلوك المجتمعات واتجاهاتها القيمية ونمط حياتها وأفكارها تحت وقع الخوف الجماعي، لتترك بصماتها في التركيبة النفسية نتيجة خبرة استثنائية تعلق آثارها في الضمير الجمعي، كالطاعون والموت الأسود أو الأنفلونزا الإسبانية أو الكوليرا، وكوفيد 19 وغيرها من الاوبئة التي اجتاحت العالم وأظهرت الجانب السيء من البشر. هذه السلوكيات يطلق عليها مفهوم سيكولوجية الأوبئة، التي تدور بالأساس حول حالة الخوف والقلق المصاحبة للأوبئة، والتي تدفع البشر إلى سلوكيات أنانية وغيرمنطقية، وإلى اضطرابات نفسية ونفس- جسدية. أوبئة خاضها الإنسان كما خاض الحروب، وإن اختلفت أزمنتها وأنواعها، فإنها ترتبط بتغيرات جذرية تطال أنماط حياته كلها.

ولعل أهم الآثار النفسية التي تخلفها الحروب البيولوجية والأوبئة بشكل عام ومنها الوباء المستجد" كورونا"، هي كالآتي:

1- **<u>القلق والخوف من المجهول</u>:** لعل سبب القلق والخوف الذي يعتري الإنسان بسبب فيروس كورونا، هو أن أكثر الفيروسات والأسلحة البيولوجية، لا يمكن لحواسه الخمس أن تكتشفها، لذا لا يوجد إنذار يستطيع الناس بواسطته إنهاء الخطر والدفاع عن أنفسهم. هذا بالإضافة إلى أن لكل الأسلحة البيولوجية فترة حضانة المرض، يمكن للمرض خلالها الانتشار إلى عدد كبير من الناس، لذا لا يستطيع المتعرض للسلاح البيولوجي معرفة ما إذا كان في عداد المصابين، ولا درجة المرض الذي قد يحل به، ومدى خطورته. ولا ترتبط حالة القلق بالمصابين فقط بل إنها تشمل المجتمع كله بدرجة أو بأخرى. فهي حالة مرتبطة بسرعة انتشار الوباء، بالإضافة إلى انعدام قدرة الفرد على توقع متى وكيف ينتهي الوباء. ولا يوجد سقف واضح أو يقين بظهور دواء معالج. ويصاحب الفرد القلق والخوف ليس فقط من وقوعه هو في دوامة الوباء نفسه، بل الخوف على محبيه، وعلى عائلته وعلى المحيطين به. وكلما زادت فترة تفشي الوباء كلما زاد الضغط النفسي على الفرد. كما أن حداثة الوباء لا تسمح بوجود كم ونوعية المعلومات التي من شأنها بث الطمأنينة، بل إن المعلومات المتوفرة نتيجة تناقضها، تعزز المخاوف وتزيد منها. وأنه كلما زاد الخوف والقلق والاحساس بالخطر والتهديد، تعرضت الصحة النفسية للتأزم وتأثر تركيز الجهاز المناعي للجسم مما يزيد احتمالية الإصابة بالمرض.

2- **عامل الصدمة النفسية:** نتيجة الحدث المفاجئ والضاغط لفيروس كورونا، والذي وضع الإنسان في العالم أجمع، في حالة من الصدمة الناجمة عن الخوف والهلع من المرض والالتقاء العيني مع الموت، وتهديد الحياة، حيث وضعت الفرد في حالة من الحداد النفسي الذي يمر بدوره بمراحل متعددة تبدأ في شكل حالة من التوقف وعدم التصديق والتنكر لظرف الحدث الصدمي بهدف التخفيف من وطأته، ثم الغضب لحصوله، ثم المساومة وعقد الصفقات كمحاولة للتحكم به ومنعه من السيطرة عليه، ومن ثم معايشة الحدث الصدمي والقبول به وامتصاصه والتأقلم معه.

وتجدر الإشارة إلى أن آثار الصدمة النفسية تختلف من فرد إلى آخر تبعا لخصائص شخصيته ومناعته النفسية، ضعفها أو قوتها، وقد تظهر تلك الآثار بشكل مباشر أو بعد زوال فترة التهديد بفترة معينة. فهناك أشخاص اختبروا الحروب وعاشوا تجارب سابقة أو مشابهة، وهناك أشخاص لم يتعرضوا لهكذا تجربة. بالتالي فإن تكرار التجربة لدى بعض الأشخاص يعيد إحياء الصدمة الأولى في شكل معايشة خيالية وذلك عن طريق صور متلاحقة في مخيلته لما حدث وما ينتج عنها من معاناة وتأثر وجداني كبير. وما متلازمة التكرار سوى إعادة تنشيط لهذه الخبرة بهدف مواجهتها مرة أخرى والتحكم بها.

أما الأشخاص الذين لم يختبروا صدمة مشابهة، يعيشون تجربة جديدة، وخصوصاً الأطفال الذين لا يستطيعون إيجاد فهم سليم ومقنع لتفهم أسباب هذا الفيروس وأبعاده العنيفة، سيما عندما يفقدون بسببه أحد أفراد أسرهم دون مبرر لهذا العنف الشديد، أو حين يشاهدون ما تبثه وسائل الإعلام من مشاهد لمقابر جماعية أو حرق للجثث التي توفيت بسبب الفيروس، الأمر الذي يؤدي إلى اختزان تلك المشاهد في مخيلته لتحدث لاحقا اضطرابات نفسية وسلوكية ونفس- جسمية ينعدم معها النماء الصحي والتوازن النفسي.

إن كل تلك الآثار التي تترافق مع أزمة كورونا من قلق وتوتر وضغوطات نفسية واحباطات، في حال عجز الإنسان عن مواجهتها والتكيف معها، من شأنها أن تعرضه الى امراض نفسية كالقلق والقلق الحاد والاكتئاب والهلوسة والوساوس القهرية وزيادة ملحوظة في الحركة، وأحياناً غياب عن الحاضروشعور بالذنب، وقد تقود تلك الأمراض بعد انهيار دفاعاته المناعية إلى عوارض وامراض سيكوسوماتية مثل فقدان الشهية وأوجاع المفاصل وصداع نصفي وغثيان وتساقط الشعر وخفقان القلب وارتفاع كوليسترول الدم وارتفاع السكري وغيرها من العوارض الأخرى.

3- **ازدواجية السلوك بين العقلانية واللاعقلانية:** تلاحظ الدراسات السيكوسوسيولوجية، أنه في الأوقات الطبيعية يتمكن غالبية البشر من الحفاظ على قدر من العقلانية بطريقة أو بأخرى، غير أنه في الأزمات تأخذ اللاعقلانية بزمام الأمور، ويدفع الخوف والارتياب نحوسلوكيات متناقضة غير منطقية، ليستعيد

الفرد نمط حياة تحركها المشاعر والاحتياجات البدائية، ويستخدم فيها معتقدات تبناها بفعل التعلم المبكر غير المنطقي وقت الأزمات والتي تنتهي بالسيطرة على الفرد تماما، منها غريزة البقاء. وتتغذى اللاعقلانية على نفسها وتتضاعف لتصل به إلى الانهيار، كما حصل في الأزمة الراهنة من هلع الشراء " شراء المواد الغذائية، شراء الكمامات والمطهرات، إجراءات الدفن، عدم التقيد بالتعليمات الوقائية واحترام الحجر والحظر". كلها تصرفات مدفوعة بانفعالات الفرد ومشاعره وليست وفقاً للحسابات المنطقية والعقلانية.

4- **تصاعد الشعور بالشك وتراجع الثقة بالحكومات وممارساتها:** يلعب عامل الثقة بالحكومات، دوراً هاماً في تخفيف ضغوط الناس ومخاوفهم. وهذا مرتبط بشكل أساسي بعامل ثقة الشعب بمؤسسات دولته. فكلما كان لدى الشعوب درجة عالية من الثقة في مؤسسات الدولة وخدماتها، كانت هناك قدرة على الاحتواء وتقليل حدة القلق العام وتحجيمه قبل التحول لسلوكيات غير منطقية بدافع الخوف. ولاحظنا كيف أن أكثر الدول المتقدمة تتعرض لانتقادات كما في حالة إيطاليا وبريطانيا، حيث ظهرت أصوات شعبية تتهمها بالتقصير وعدم اتخاذ اجراءات صحية مبكرة لوقف انتقال المرض إلى داخل الدولة. وهذا ما شهده لبنان أيضاً، حيث توجهت أصابع الاتهام إلى وزارة الصحة والحكومة لإهمالهم وتقصيرهم في ايقاف حركات النقل الجوية والبرية على الرغم من سعي الدولة في احتواء الأزمة وبذل الغالي والنفيس لإنقاذ الأرواح والحفاظ على صحة المواطنين. كما تصاعدت حالات الشعور بالشك من كل شيء حول الفرد، والشك بالآخر من أن يكون مصدراً للوباء، وهو ما يمثل عائقاً أمام ممارسة التفاعلات الاجتماعية، لا بل قد يصل نظرياً إلى حدّ ما قاله العالم (هوبز)[14]: "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"، وأن "الكل في حرب ضد الكل"، ويرتكز الأمن برأيه على وجود سلطة قادرة على فرض النظام والعدل وإلزام الناس باحترام مقتضيات العقد الاجتماعي.

5- **الخطاب السياسي:** يلعب الخطاب السياسي كما الخطاب الديني، دوراً هاماً في طمأنة الشعوب والتخفيف من معاناتهم. وقد كان خطاب رئيس الوزراء البريطاني جونسون، الحدث المفاجئ في ظل أزمة كورونا، وكان محل إنتقاد من الجميع باعتباره يغذي مشاعر القلق والذعر والهلع في نفوس المواطنين، عندما صرّح "أن على الشعب البريطاني الاستعداد لتوديع احبائه". وكذلك ما صرح به رئيس الولايات المتحدة ترامب ليبشر شعبه والعالم " أن وفاة 200 ألف أميركي بالكورونا سيكون رقما جيداً". وكأن بهذين الإثنين يعيداننا إلى قرون مضت حيث البقاء للداروينيي الأقوى، أما الضعيف

[14] https://www.mo7itona.com العقد الاجتماعي عند هوبز وشريعة حرب الكل ضد الكل، الحسين بوتشيشي، 2016/2/20. تاريخ الزيارة: 2020/5/16.

فليمت، لا حاجة منه ولا منفعة. هذا ما يجعلنا نعيد الحسابات ونطرح التساؤلات حول معنى بعض الألفاظ والتسميات مثل العولمة وقوة وقدرة الدول العظمى تلك. فبدل من أن يكون الخطاب خطاباً تطمينياً في ظل جائحة كورونا، كان خطاباً تخويفياً وتهديداً لحياة الفرد ووجوده. وهذا يتعارض بالطبع مع ما جاءت به المنظمات الدولية التي تنادي بالدفاع عن حقوق الانسان، الأمر الذي يبعث على فقدان ثقة المواطنين بحكوماتهم وبتلك المنظمات التي تنادي بالإنسانية ونشر الحريات.

المبحث الثالث: آليات التخلص من الآثار السلبية لجائحة كورونا والتحديات المتوقعة ما بعدها.

أولا: آليات التخلص من الآثار السلبية لجائحة كورونا

للتخلص من المشاعر السلبية الناجمة عن جائحة كورونا يمكننا اتباع الإجراءات الآتية:

- التمتع بالمرونة النفسية والعقلية وتقبل الواقع كما هو وفق آليات نفسية مساعدة "عين على الواقع وعين على الذات" والعمل على توسيع زوايا النظر بما يخدم المناعة النفسية.
- النضوج والمهارة في تكوين العلاقات الاجتماعية الإيجابية، والتمتع بالفاعلية والكفاءة في الأداء المهني، والتكيف مع الظروف الراهنة سيما في العمل عن بعد والذي يطال جميع المجالات والقطاعات الإنتاجية.
- التوافق مع الذات من خلال تعلم الفرد العديد من الخبرات والمهارات الجديدة وتوظيف الامكانيات الفريدة لتحقيق الإشباع المعنوي والجسدي وغيرها.
- التوجه إلى مراكز الرعاية الصحية والنفسية في حال شعر أحد المواطنين بعوارض نفسية أوجسدية، للتخفيف من معاناته واستعادة الثقة بنفسه وبالمحيط من حوله.
- العمل على تثقيف المواطنين وتوعيتهم تجاه جائحة كورونا من خلال الندوات والمحاضرات وورش العمل، والعمل على إحياء القيم الأخلاقية ومد جسور الثقة فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين دولتهم من جهة أخرى.
- العمل الحثيث من قبل الدول والحكومات على إيجاد الحلول المناسبة للمشكلات التي تعصف بدولهم جراء أزمة كورونا وما خلفته من آثار، ومنح الشعب تفسيراً منطقياً للواقع الذي وجدوا فيه، والخروج منه بأقل الخسائر المحتملة.

ثانياً: التحديات المتوقعة في المستقبل:

يبدوأن العالم كما نعرفه، لن يعود كذلك بعد الخروج من أزمة كورونا الحالية، فقد تتغير كثير من السياسات والعلاقات الاقتصادية والأولويات الاجتماعية، وقد تتطور التقنيات العلمية، وتنتشر من خلالها وعلى نطاق واسع أنظمة العمل عن بعد، وقد يقترب كثير من الناس من بعضهم ومن الله، أو يزدادون انفصالا وبعداً عنه. إن هذه الجائحة تشكل حالياً مفصلاً رئيسياً في تاريخ الانسانية وجزءاً أساسيا في عملية تكوينه، وبالتالي تكوين الإنسان والمجتمعات على كافة المستويات المادية والنفسية. ولا بد من إعادة النظر في المسلمات والتدقيق والتحليل أكثر في مفاهيم الحرية والمسؤولية والنظام والإدارة والقوة. ولا تشمل هذه النقاط كافة الآثار الموجزة المحتملة بالطبع، فهذه تتطلب دراسات تفصيلية وتطبيقية، لكنها توضح الخطوط العريضة والاتجاهات الأساسية لها، والتي ستتحدد مساراتها وتفرعاتها التفصيلية بحسب مدى وتيرة انتشار الفيروس وكيفية استجابة الحكومات للموقف على كافة المستويات. وهي استجابة ستتضمن بالضرورة تضحيات ضروررية واجرائية استثنائية إذا أرادت أن تتجاوز هذه المحنة ذات الأبعاد العالمية. فليست الحكومة لاعباً منفرداً في مواجهة هذه التحديات الخطرة والشاملة. لذا لا بد من التعاون والتكاتف بين الجهات المحلية والدولية المعنية في مواجهة وتنفيذ الحلول، للخروج بأقل التكاليف والأعباء من هذا الواقع المرير.

الخلاصة: أظهر تفشي جائحة كوفيد- 19، بأن العالم قرية كونية بالفعل، ولكن هذه " الكونية" ليست بمنجاة من مخاطر آتية إليها من أحد مراكزها أو أطرافها، وليس هذا الوباء هو التحدي الوحيد الذي يواجه العالم ويترك وراءه آثارا اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية..الخ ، فهناك ما لا يقل خطورة عنه: الكوارث الطبيعية، الاضطرابات والنزاعات السياسية والاجتماعية الناجمة عن اخفاقنا في بناء مجتمعات عادلة تصون أبناءها، وهناك هموم الحياة اليومية التي تثقل كاهل الملايين لا بل المليارات من البشر، وهناك حمى الحياة الاستهلاكية التي ترينا أن الانسان مرّ بمنعطفات كبرى، غيرت الكثير فيه وفي المحيط من حوله وفي طريقة تسيير أموره. فوقائع التاريخ البشري، الحروب العبثية المدمرة، الحروب الجرثومية وآخرها كوفيد- 19، أسهموا وسيسهموا في خلق عالم جديد لا محال.

المراجع البيبليوغرافية:

أ- **الكتب:**

1- أكوافيفا، سابينو وأنتروباتشي، علم الاجتماع الديني، الإشكالات والسياقات، أبو ظبي، ط1، 2001.

2- السيد، حسن عمار مكاويوليلي, الإتصال ونظرياته المعاصرة, دون طبعة, الدار المصرية اللبنانية, مصر, 2001.

3- قطب، محمد، الإنسان بين المادية والإسلام، دار الشروق، بيروت، ط10، 1989
4- ويلام، جان بول، الأديان في علم الإجتماع، ترجمة بسمة علي بدران، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشروالتوزيع، بيروت، ط2001،1.

ب- **المواقع الالكترونية**:

1- اتهامات كورونا دعوة للتركيز على الإرهاب البيولوجي- مركز المسبار للدراسات والبحوث. نقلاً عن الموقع الالكتروني. http://www.almesbar.net. تاريخ الزيارة:2020/5/10.
2- الحروب البيولوجية أسلحة خفية وجرائم منسية، مقال : زيد المحبشي، 2020/4/11، نقلا عن https://m.annabaa.org>arabic، تاريخ الزيارة:2020/5/17.
3- اليابان وأسلحة الدمار الشامل، نقلا عنhttp://ar.mwikipidia.org، تاريخ الزيارة:2020/5/20.
4- أحظر الأوبئة التي ضربت العالم،3/2020 /17، نقلا عنArabicpost.net ، تاريخ الزيارة: 2020/5/11.
5- حرب بيولوجية- ويكيبيديا، نقلا عن https://ar.m.wikipidia.org، تاريخ الزيارة:2020/5/12.
6- البطالة في لبنان، صدر بتاريخ 2020/5/26، نقلا عن www.Lebanon24.com ، تاريخ الزيارة: 2020/5/30.
7- العرقسوس والإيفيدرا، الصين تلجأ للطب الشعبي لمواجهة كورونا، سكاي نيوز، نشر بتاريخ:2020/2/28، نقلا عنhttps://www.alroeya.com ، تاريخ الزيارة: 2020/5/22.
8- كيف غيرت الوبئة تاريخ البشرية، مقال: عبده حقي، في حوار مع "فرانك سنودن، نشر بتاريخ2020/4/18، نقلا عن diwanalarab.com، تاريخ الزيارة: 2020/5/19.
9- العقد الاجتماعي عند هوبز وشريعة حرب الكل ضد الكل، الحسين بوتشيشي، 2016/2/20.نقلا عن mo7itona.com، تاريخ الزيارة: 2020/5/16.
10- v.Berras&G.Greub,history of biological werfare and bioterrorism, clinical microbiology and infection, volume 20, june 2014> نقلا عن: Http://www.sciencedirect.com/science/article/pii/s1198743x14641744.، تاريخ الزيارة:2020/5/18.